

## المقالة التاسعة والثلاثون<sup>١</sup> عظة للمبتدئين بسيرة العبادة

أيها الحبيب هاأنذا أعاهدك بالرب عهداً جديداً فإن حفظته سيمنحك الرب أخيراً سروراً إن زهدت في العالم الباطل ودخلت إلي كنونيون وجمع أخوة كثيرين فلا يطغك العدو أن تخرج من الدير لنألا تندم أخيراً بل أصبر واضعاً أساساً صالحاً بكل تواضع العقل .

فلا تجزع من المحن المتقاطرة إليك من العدو بل أصبر لتتال التطويب لأنه كتب : الطوبى للرجل الذي يصبر على المحنة فإنه إذا صار مختبراً يأخذ الإكليل الذي وعد به الرب للذين يحبونه . أتشاء أن لا يستولى عليك أقطع كافة مشيئاتك فيصير لك نياحاً .

وإن ظننت الأمر جيداً وأعلمك المتقدم عليك بالرب أنه ليس جيداً فأخضع له بالرب فإن من يؤثر الشغب ويتبع فكره فذلك علامة انقلابه لأن المبتدئ إذا أمر ولم يخضع يصنع لذاته اسم تعبير لأنه قال في المزمور : اعبدوا الرب بتقوى واجدوا به برعب ، تمسكوا بالأدب لنألا يسخط الرب فتضلوا عن الطريق المستقيمة .

فمن يحب التأديب لا يحزن ، ومن يمقت الأدب يخسر ذاته ، كما أنه غير ممكن أن يلقي في الجرة نبيذ وخل كذلك لا يمكن أن تسكن فضيلة العابد مع عدم الأدب وليقتنعك بذلك الرسول قائلاً : أي اتفاق للمسبح مع المارق وأية شركة للنور مع الظلمة .

حب العفة متناهيماً في حدودها ليسكن قلبك روح الله . إذا أهلت لسيرة العبادة فلا تتنازل هكذا للأفكار إن حاولت أن تفصلك من زمرة الأخوة لنألا تتعلم منذ مبدأ شبابك أن تكون تائهاً وغير ثابت . أحرر أن تضع الورع الذي كان لك حين دخلت الدير بل تمسك به إلى النهاية ، والسب والحلفان لا يلفظان بشفتيك كما يليق بالقدسين بل كن متواضعاً وفي كل جواباتك فليكن لك ( أغفر لي ) لتبيد منك العادات الرديئة التي للعالم وتسير سيرة ذات فضيلة فيكون لك المديح من الرب .

إذا أحببت سيرة العبادة وتركت الذهب والفضة والثياب وتقدمت فأرسلتها إلى السموات كما تأمر وصية المخلص فأقتن عوضها الأمانة الحمية الصبر التواضع والباقي يرزقك إياه الله بخيريته ، إن جاء أحد من حال جليلة إلى سيرة العبادة فليحفظ ذاته من شيطان استعلاء العقل لنألا يسقط في روح الكبرياء وعدم الخضوع فيخسر ذاته .

أيها الحبيب هذا الأمر ليس هو خجلاً لك إن كنت في طاعة بمشيئة الرب ولا إن عملت بيدك الصلاح لأن هذه الضيقة اليسيرة والضغطة التي تحتملها من أجل الرب تصير مسببة لك الحياة الأبدية ، وماذا أقول كل ضيقة سيرة العبادة كمن يبدد درهماً بربوات قناطير ذهب .

كذلك الضغطة الحاضرة بإزاء الحياة المستأنفة المؤبدة وبالعكس الضيقة العتيدة التي تلتقي الصناعي الطلاح ، فأشياء قليلة تعطى وحظوظ جزيلة تأخذ . تيقظ الآن يا حبيبي مثل جندي نجيب ولا تضع في الموهبة التي فيك لنألا يوافيك الأمران كلاهما أنك أحزنت الناس أعني والديك بالجسد وجميع خلانك والله ما أرضيته .

فجاهد ليمجد بك الحاضرون الله بسيرتك الصالحة لأنه قد كتب أن الذين يتقونك يبصرونني فيسرون لأنني وثقت بأقوالك ، وأيضاً سلامة جزيلة للذين يحبون شريعتك وليس لهم شك فلهذا تحرر من استعلاء العقل والرب يكون لك حظاً وحصناً الذي له التسبيح إلي الأبد أمين .

<sup>١</sup> كتاب: مقالات مار إفرآم ملفان الكنائس السورية ومعلم الأرثوذكسيين أجمع  
وقف على طبعه أحد رهبان دير السيدة العذراء البراموس في برية الأنبا مقاريوس  
طبع سنة ١٨٩٢

يا أخوتي أني أشعر أن النعاس ثلاثة أنواع وهي التي تؤذي الإنسان ليلاً أما النوع الأول فيعرض للأخ من فعل الشرير إذا بدأ يصلي فخلواً من رقاد الأخ لا يقتدر على شئ بل يؤذيه كثيراً إن ثقلت معدة الأخ بالأطعمة والأشربة . والثاني يتوانى في نصف الليل إذ لم يكره ذاته في الوقوف إلى كمال القانون بعد انتصاف الصلاة لكن يؤثر أن يترك المرتلين ويذهب إلى فراشة وأما الثالث فيعرض أن يشمل الأخ بالطبع أي بعد كمال رسم الصلاة الجامعة المألوفة .

فمن أجل هذا يحتاج الضعفاء من الأخوة إلى التمهّل لئلا يصير رأي العدو ، وأنت أيها الأخ لا ترقد في كل شئ ، أما قد سمعت مراراً كثيرة أن الرب أستدعى صموئيل النبي فلم يكل عن النهوض ومع هذا أنه كان صبيّاً .

إذا قمت في الصلاة الجامعة في وسط الأخوة ، وإذا قمت في التفرد لتمجيد ربنا يسوع المسيح فأياك النعاس الأول فقاومه بمعرفة لئلا يضاعف كسلك فيردك إلى فراشك فارغاً بل أصبر بثبات وإن ألقاك على وجهك مرة ومرتين فلا تنتقل من مكانك فتجد منفعة عظيمة لأن ألم النوم الذي لا يشبع منه لا يضاهي شره البطن لأنه إن تعود أحد أن يأكل كثيراً تطالبه الطبيعة بأغذية كثيرة وإن تعود بالمسك والحمية فلا تطالبه الطبيعة أن يأكل كثيراً ، ردد التفكير في الصيادين أنهم يكملون كافة الليل ساهرين ويتوقعون الصيد فإن ثقل أحدهم بالنوم فتوانى ونام ونهض من نومه وتأمل ذاته لم يصد شيئاً وأبصر المنتبهين والمتيقظين قد رزقوا فحينئذ يتندم في ذاته ويقول : ويلي أنا الخاطئ والمضجع والعاجز فإنني توانيت ونمت وإلا فكنت اصطدت كرفقائي ورزقت لكنني توانيت فالآن أذهب فارغاً إلى بيتي ليس في يدي شئ لأنه قيل : ناموا نومهم فلم يجدوا شيئاً . تفكر أيضاً في الفاخوري والحداد فتجد هناك تعباً لا يحصي وسهراً كثيراً جداً وصبراً .

فأما نحن فلا يشتمل جسدنا الدخان والغبار ولا نحتمل شيئاً نظيرهما بل نقف في موضع نظيف ومقدس قدام ربنا وإلهنا في دالة جزيلة وسلامة ، في مزامير وتسابيح وتهليلات روحانية ورجاء صالح ، فلم نضع يا حبيبي ما هو عمرنا على الأرض ها النبي يهتف إن الإنسان شبه بالأمر الباطل وأيامه تعبر كعبور الظل .

لا تشابهني أنا الراقد والمضجع الصبر عالماً هذا بمبالغة أن من يتيقظ يربح ومن يضيع يخسر لأن كل واحد منا يعطي عن نفسه لله جواباً لأنني علمت أن لا عذر لي عن أعمايي ، لأنني أعظ آخرين وأثبت في ونيتهم نفسها ، لذلك أتضرع إليكم يا عبيد المخلص المؤمنين أن تتضرعوا إليه من أجلي مبتهلين إلى المسيح مخلصنا الملك على القوات أن يحموا غزارة خطاياي بوفور رأفاته ويخلصني إلى ملكه السماوي بتعطفه على الناس .

فلا نحسب يا أخوتي النوم فائدة ، وراحة الجسد ، فإن الفائدة والراحة هما أن يكلف الإنسان ذاته في عمل الرب كل حين فلنكلف ذاتنا يا أحبائي لكي ما إذا جاء الرب يجدنا متيقظين فيؤهلنا لتطويبه لأنه قال : الطوبى لأولئك العبيد الذين إذا جاء مولاهم فيجدهم متيقظين فليعز بعضنا بعضاً وليعظ أحدنا الآخر بمخافة الله ولينهض بعضنا بعضاً إلى النشاط إلى تمجيد الرب مخلصنا يسوع المسيح لينهضنا مع كافة الذين أحبوا ظهوره ويقيماً عن يمينه في ملكه الذي له المجد إلى أبد الدهور آمين .

يا أحبائي فلنصر مثل جند شجعان مستعدين أن نموت عن ملكنا لأننا حين كنا نتصرف في العالم ونقلب في الأمور الأرضية لم تصبنا هذه الشدائد ولا دهمتنا هذه الغيوم بل الآن لما جئنا لنرضي الرب بحرارة ننهض علينا الشرير هذه المحن والأحزان والهياج ، أرايت أننا من أجل الرب تصيبنا هذه لأن العدو يحسدنا ويروم أن يردنا من طريق الحياة ويقننا إلى الرخاوة والسامة لئلا إذا أرضينا الرب نخلص فمهما أثار الخبيث من هذه الأشياء علينا ووجدنا شجعاناً في الصبر ونشيطين مستعدين أن نفضي إلى الموت صابرين من أجل أمل المسيح فستحل كافة حيلة لأن المسيح مؤازراً لنا ومحارباً عنا فإنه يمنحنا الصبر إذا حزنا وتوكلنا عليه ونخزي أولئك ونحظى من الرب بجوائز الأتعاب التي هي الملكوت .

فلنصر مثل سندان يضرب فلا ينثلم ولا نقبل في ذاتنا أثراً واحداً من الاسترخاء أو من السأمة أو من الضجر في الجلادات والمحن فإذا ضربنا فلنغلب المصارع بالصبر لأن ربنا هكذا جال هذا الدهر مجلوداً معيراً مبصوقاً عليه مرجوماً ، أخيراً أحتمل من الأثمة موت الصليب .

فأحتمل سائر الأشياء من أجل خلاصنا مخلفاً لنا تمثال الحياة لكي ما في طريق الأحزان والمحن والموت التي سلكها يسلك الذين يؤمنون به بالحقيقة والذين يؤثرون أن يصيروا في الميراث بآلام كثيرة مات على الصليب فغلب حين صلب وحين مات غلب وقتل وداس الخطيئة بالجسد وحطم القوي المضاد كما كتب أنه جرد الرئاسات والسلطات وفضحهم علي الصليب .

هكذا نحن إذا صبرنا على كل شغب وحزن وارد من الخبيث بشهامة ونشاط نغلب المضاد بالأمانة والصبر والرجاء في المسيح وهكذا نوجد مهذبين هنا ونؤهل للأفتداء ونمتلئ قداسة الروح ونصير وارثين الحياة الأبدية التي هناك لأنه في الجهاد الروحاني يصير الظفر بالمعاند بالآلام والموت فإذا تألمنا ومنتنا من أجل الرب نغلب بنشاط كافة اقتدار المعاند ولا نحسب كل حزن وكل محنة أنها مؤلمة موجعة بل فلنكن شهوتنا موجهة إلى الرب ونعاین موته قدام أعيننا ، فاحتملوا كل النوائب بصبر كما قيل كل يوم نحمل صليبه الذي هو الموت ونتبع أثره فهكذا نحتمل بسهولة كل اغتمام إما مكتوماً وإما ظاهراً لأننا إن كنا نؤمل أن نصبر من أجل الرب على الموت ونتوق أن يكون لنا قدام أعيننا كل حين ، فكيف لا نصبر بفرح على المحن مهما كانت ثقيلة تداهنا بحجة وبلا حجة ، إننا نحتسب الغموم ثقيلة ولا صبر لنا عليها لأن ليس قدام أعيننا الموت ولا يتوق إليه ذهننا كل حين لأن من يشتهي أن يرث المسيح يؤثر بلا مرء التألم ، الذين يحبون المسيح يستوضحون بهذا إذا صبروا على كل حزن بشهامة ونشاط من أجل الرجاء بالله .

فلنتضرع الآن إلى الرب أن يعطينا فهماً أن نعرف مشيئته ونكملها بنشاط بكل صبر وتمهل وسرور يعطينا إياها مؤيداً إيانا في كل أمر يرضيه لنوجد مهذبين ومستحقين أن ننال الخلاص الأبدى بيسوع المسيح ربنا الذي له المجد والعزة إلى أبد الدهور . آمين .